

## «المسألة السوسيولوجية» و«المسألة الاجتماعية» عند محمد جسوس: نحو خطاطة منهجية أولية لقراءة في أعمال ومسار عالم اجتماع (\*)

مصطفى محسن (\*\*)

باحث سوسيولوجي وخبير تربوي، الرباط - المغرب.

### مقدمة

لم يجد الباحثون والمهتمون بالعلوم الاجتماعية، قبل وبعد خمسينيات القرن الماضي، في المغرب المستقل - بل وفي الوطن العربي والعالم النامي عموماً - أمامهم في هذا الحقل بالذات، سوى ما خلفته الدراسات الكولونيالية والاستشراقية من تراكم معرفي متعدد الأنماط والمستويات حول المجتمع المغربي تحديداً. ولذا، فقد كان على الرواد في مجال البحث السوسيولوجي بشكل خاص، مثل الخطيبي وباسكون وجسوس... مهام إنجاز قراءات ومراجعات علمية ونقدية لهذا التراث، وذلك بهدف فهم موضوعي مرجعياته وأبعاده ومضامينه المعرفية، والكشف عن موجّهاته وخلفياته الثقافية والأيدولوجية المرتبطة أساساً بـ «المؤسسة الاستعمارية»، بكل ثقلها وتموقعها التاريخي، وبأغراضها الظاهرة والمضمرة من توظيف ما ينتج في كنف توجهاتها من دراسات ومعارف وتصورات ومعطيات... في توطيد دعائم هيمنتها المادية والرمزية. كما كان عليهم أيضاً أن يجترحوا لأنفسهم بعض إمكانات الاستفادة العقلانية الهادفة من هذا التراث، وذلك في أفق البحث عن أنسب الشروط والمقومات العلمية والاجتماعية القمينة بتأسيس «معرفة سوسيولوجية» تمتح، من جهة، من مرجعية معرفة كونية إنسانية - على نسبيتها وقابليتها للنقد والتجاوز - وتتواصل، من جهة ثانية، مع تراثها، ومع المحدّدات الخصوصية لإنتاجها وتطويرها واستعمالها في واقع محلي أو وطني محدد في الزمان والفضاء.

لذا، فإن البحث في المسارات والمساهمات العلمية والاجتماعية لهؤلاء الرواد ينبغي ألا تقف الغاية منه عند حدود العناية بجهودهم واجتهاداتهم، على أهميتها، وإنما يجب أن

(\*) يشكّل نصّ هذا البحث صيغة معدّلة ومركزة للمداخلة التي ساهمنا بها في ندوة: «السوسيولوجيا والمجتمع: قراءة في كتابات ومسار محمد جسوس»، التي نظّمها «مجموعة الأبحاث والدراسات السوسيولوجية» في كلية الآداب والعلوم الإنسانية - أكّادال/الرباط، بتاريخ ٢٠/٤/٢٠١٠، تكريماً ووفاء للمسار العلمي لمحمد جسوس وتعريفاً بأعماله. لذا وجب التذكير.

تتعدّى ذلك لتشكّل إطلالة، ولو جزئية، على بعض جوانب ومراحل تطور الفكر السوسيولوجي في المغرب المعاصر.

## أولاً: في شجون الكتابة عن محمد جسوس: ملاحظات وصعوبات

لا ريب في أن الذي يريد البحث في أعمال ومسار محمد جسوس: عالم اجتماع وفاعلاً سياسياً، سوف يحسّ بانبهار كبير مرّده، في الأساس، إلى سعة فكره وتعدد وتدّخل اهتماماته العلمية والسياسية والاجتماعية المتباينة... مما يضع أمام الباحث صعوبات فكرية وعلمية، لعل من بين أبرزها، فقط، ما يلي:

١ - عدم كفاية ما جمع ونشر من أعماله، التي ينتظر أن تشكل نصوصاً أو متوناً للقراءة والفهم والتفكيك والتحليل والتفسير...<sup>(١)</sup>.

٢ - خلو جلّ هذه الأعمال المنشورة من توثيق منظّم للعديد من المراجع والأسماء الفلسفية والسوسيولوجية والأنثروبولوجية... الخ، التي كان يوظّفها ويشير إليها في دروسه الأكاديمية بشكل خاص، مثل: روبير ميرتون، وتالكوت بارسونز، وإدوارد تايلور، ورادكليف براون، ورفال لينتون، وكارل ماركس، وإميل دوركهايم، ولويس ألتوسير، وموريس غوديليه، ونيكوس بولانتزاس، وبازيل برنشتاين، وريمون آرون، وآلان تورين، وصولاً إلى بيير بورديو، وريمون بودون... الخ، وهي ذخيرة مهمة من «الرؤوس» والمدارس الفكرية... التي يمكن أن تشكّل أرضية معرفية مرجعية يستند إليها ويسترشد بها، ولا سيما في إطار المقارنة بين بعض عناصر الجذّة والاختلاف، أو التماثل والتكامل بين الطروحات الأصلية لمحمد جسوس وهذه المرجعيات الفكرية الوازنة.

٣ - اعتماده، في ممارساته العلمية والسياسية... على الخطاب الشفوي، الذي اعتقد أن امتلاك محمد جسوس لناصيته، ولما يتطلبه من قدرات ومستلزمات، قد شكّل أمامه عدة «عوائق سيكولوجية وإبيستيمولوجية» حالت بينه وبين أي انتقال سلس إلى «الكتابي/ المكتوب»، بما يفترضه من شروط ومقوّمات وآليات اشتغال... وهو واقع جعل من أعماله غالباً ما يتم نشرها عبر وسطاء من الطلبة، والمحربين والمحاورين والمراجعين... الخ، الأمر الذي قد ينتج منه تحريف ما للغة أو الأسلوب أو المفاهيم والأفكار والمضامين التي يحملها النصّ المعني (جسوس، ٢٠٠٤: ٣ - ٣٩)<sup>(٢)</sup>.

(١) انظر مؤلفات محمد جسوس التي جمعت ونشرت مؤخراً (جسوس، ٢٠٠٣: ٢٠٣؛ ٢٠٠٤: Guessous, 1960, and 1968).

(٢) لقد واجهتني هذه المشكلة عملياً حين قُمتُ في أواسط الثمانينيات من القرن المنصرم - بمعونة د. عبد الله محسن ود. محمد الحبيب الرطل - بتجميع وترتيب وتحرير درسه القيم، الذي قدّمه لنا في أواخر السبعينيات في كلية آداب الرباط، والموسوم بـ: «مدخل إلى سوسيولوجيا الثقافة والأيدولوجيا: مساهمة نظرية في دراسة وتحليل الأنساق الثقافية والأيدولوجية». وكذلك عندما شاركت بعض الزملاء في قراءة ومراجعة نصوص أخرى للباحث.

٤ - غموض مصير الكثير من الحوارات والمحاضرات والدروس... التي أنجزها، وغيابها من «المتن الجسوسي». ولست أدري ما إذا كان هو نفسه يتوفر عليها، أم أن البعض ما يزال يستأثر بها لعوامل واعتبارات مجهولة ومتعددة.

٥ - يُضاف إلى ما سبق غياب «ثقافة الاعتراف» في سياقنا الثقافي والاجتماعي العام. وهو غياب، أو ضمور على الأقل، جعل من أعمال محمد جسوس ومن نضالاته الفكرية والسياسية لا تحظى دائماً بالمتابعة والاهتمام والدراسة والمراجعة النقدية المطلوبة... الأمر الذي يفوّت على الباحث في أعماله توفر «متون موازية» يمكن اعتمادها «مادة» مساعدة على القراءة والبحث والتحليل... للمتون الأساسية المشار إليها<sup>(٣)</sup>.

٦ - ولعل من بين أبرز مصاعب ومنزلقات البحث في أعمال ومسار محمد جسوس هو ذلك التداخل أو التأثير الجدلي المسترسل في مساهماته بين ما يمكن نعتة بـ «المسألة السوسيولوجية» و«المسألة الاجتماعية»، وصعوبة التمييز، في هذه العلاقة الجدلية بين المسألتين لديه، بين وضعية العالم أو الباحث الموضوعي، وبين «المثقف العضوي» والفاعل السياسي والاجتماعي الملتمزم. ولذا أعتقد أن الإمساك بأهم تلابيب وخصوصية العلاقة الأنفة يمكن أن يشكّل - لاعتبارات إبيستيمولوجية وأيديولوجية تتعلق ببعض آليات إنتاج المعرفة في علم الاجتماع ذاته - مدخلاً نظرياً ومنهجياً مفيداً إلى قراءة وفهم منتج الرجل الفكري، و«مشواره» السياسي والاجتماعي بشكل عام، كما سيتبدّى لنا ذلك لاحقاً<sup>(٤)</sup>.

## ثانياً: المسألة السوسيولوجية في فكر محمد جسوس: بين هموم النقد ومهام التأسيس

نقصد هنا بـ «المسألة السوسيولوجية» (Question Sociologique) كل ما يرتبط بشروط ومقومات وآليات إبيستيمولوجية واجتماعية لإنتاج وإعادة إنتاج وتطوير المعرفة في علم الاجتماع تحديداً، من قواعد وأعراف وتقاليده وعدد نظرية ومنهجية، مما يفترض أن يلتزم به «المجتمع العلمي»، أي مختلف الأطراف المعنية، من تأهيل وأخلاقيات فكرية ومهنية في ميادين الدراسة والبحث العلمي، وفي كل أنات ومراحل إنتاج المعارف العلمية، وتقييم مصداقيتها وحدودها ومحدوديتها، ونقد عوائقها المعرفية الذاتية منها والموضوعية... (بوسينو، ١٩٩٥، و Bourdieu, 1973).

وفي إطار اهتمامه بهذه المسألة، انشغل محمد جسوس، منذ بداية مساره العلمي، بضرورة المساهمة في التأسيس لـ «سوسيولوجيا نقدية»، تقطع، من جهة، مع أنماط من «المعارف» الكولونيالية التي ظلت، لمدة عقود، وفي مجالات بحثية واجتماعية معينة، محتكرة للهيمنة والتصدر، ولكن من دون إلغاء أهميتها كلية. ومن جهة ثانية، كان يريد لهذه

(٣) حول هذه الإشكالية المعمّقة، انظر: (أفاية، ٢٠٠٠).

(٤) للوقوف على تداخل وتعمّد أبعاد حضور هاتين المسألتين في أعمال محمد جسوس، انظر: (جسوس، ٢٠٠٣، ب، و٢٠٠٤).

«السوسيولوجيا النقدية» أن تظل منخرطة في سيرورة «مشروع كوني» للعلوم الاجتماعية والإنسانية عامة، وهو مشروع واع بمجمل الشروط والمحددات السوسيو تاريخية والمعرفية المؤطرة والموجهة لـ «علميته» في سياق تبلوره، نشأة وتطوراً وامتدادات متعددة... وواع أيضاً بخصوصية السياقات المغايرة التي تنقل إليها مفاهيم ونظريات ومناهج هذه العلوم (جسوس، ٢٠٠٣؛ ٢٠٠٣؛ ٢٠٠٣؛ ٢٠٠٤؛ Guessous, 1960, and 1968).

هكذا، إذن - وكما نخبه متميزة من مجاليه المفكرين، ومنا نحن تلامذة هذا الجيل من الرواد - اهتم محمد جسوس بالقضايا والإشكاليات التالية، التي نورد هنا فقط على سبيل الإشارة والتمثيل لا الحصر:

١ - نقد المعرفة الغربية - وخاصة في علم الاجتماع - نقداً إيجابياً ومنتجاً يقوم على التحليل والتفكيك وفهم الأبعاد والدلالات والمرجعيات وآليات الاشتغال... وليس نقداً يقوم على منطق ومقاصديات النقض والدحض والاجتثاث... كما فعل البعض إزاء المعرفة الكولونيالية، بل والاستشرافية عامة، بل وإزاء بعض مكونات التراث العربي الإسلامي كذلك.

٢ - نقد التعامل «التبعي الإتباعي» المطمئن مع هذه المعرفة، ولا سيما في بعض نماذج مفاهيمها وطروحاتها وتوجهاتها المتباينة... وأهمية التمييز في كل ذلك بين المعرفي والتاريخي، والعلمي والأيدولوجي - الثقافي، والبحث - من دون مواقف إقصائية مسبقة - عن المتاح والممكن من فرص وآفاق الإفادة من هذه المعرفة وتوظيفها، ولو ضمن مواضع وشروط محددة، في التعرف على المجال أو النظام المجتمعي المعني، بل ولم لا، إمكانية توجيهه والتأثير فيه، تغييرات ومآلات...<sup>(٥)</sup>.

٣ - نقد الفهم «الخصوصاني» أيضاً لهذه المعرفة، والدعوة إلى إنتاج «سوسيولوجيا محلية أو إقليمية...»، مثل الدعوة إلى «علم اجتماع عربي، أو مغربي أو أفريقي... الخ»، وضرورة استبدال هذه الرؤية الاختزالية بما أقترح توصيفه بـ «منظور نقدي منفتح» يكامل بين المشروع الكوني للعلم، وخصوصية القضايا والإشكالات والظواهر التي يتخذ منها «موضوعاً» للمقاربة والبحث في سياقات سوسيو تاريخية وثقافية وسياسية وحضارية متباينة متنقذة ومعينة في الزمان والفضاء...<sup>(٦)</sup>.

إن هذا النقد هو بالذات ما يعتزّ جيلنا بالانتماء إلى رموزه وتياراته الفكرية الموجهة:

(٥) هناك العديد من مساهمات محمد جسوس المرتبطة ببعض هذه القضايا ما تزال لم تُنشر بعد، وذلك مثل دروسه ومحاضراته حول: «الأبعاد السيكلوجية للبحث العلمي/ دور وحدود المعرفة السوسيولوجية/ أدوات وتقنيات البحث العلمي: تحليل المضمون - المقابلة... إلخ/ سوسيولوجيا المثقفين/ السوسيولوجيا الأنغلو ساكسونية/ سوسيولوجيا العالم القروي في المغرب... إلخ». وكلّها تمتحن، في تقديرنا، من هذه الرؤية النقدية المعنّية هنا.

(٦) ارتبطت هذه الإشكالية بما سمي بـ «أزمة علم الاجتماع»، سواء في السياق الغربي أو العربي. انظر في هذا الشأن مثلاً: (إشكالية العلوم الاجتماعية في الوطن العربي، ١٩٨٤؛ حجازي [وآخرون]، ١٩٨٦؛ السوسيولوجيا المغربية المعاصرة: حصيلة وتقييم، ١٩٨٨؛ Boudon, 1971; Bottomore, 1975, and Gouldner, 1972).

عبد الكبير الخطيبي، عبد الله العروي، محمد عابد الجابري، وإدوارد سعيد، وبول باسكون، ومحمد جسوس... الخ، متخذاً من استلهامه - في روح مضامينه وموجهاته ونواظمه المشتركة الكبرى، وليس في تفاصيل ومنحنيات التخصص أو أولويات وميادين الاشتغال - مرجعية رؤيوية جماعية لما أدعوه في أعماله «منظوراً نقدياً متعدد الأبعاد»، وبما هو نقد إبيستيمولوجي وسوسيو - حضاري عام للذات، وللآخر، وللحظة التاريخية لعلاقات التبادل أو الحوار أو الصراع... التي تجمع بينهما في مساق ما، محاولاً أن أجعل من ذلك خلفية فلسفية لأعمالي في مجال «سوسيولوجيا التربية والثقافة والتنمية...»، موجهة لي في التفكير والبحث والاهتمام... وذلك أسوة ببعض الباحثين وتلاميذ محمد جسوس<sup>(٧)</sup>.

٤ - يُضاف إلى ما سبق عرضه أن محمد جسوس وهم ينهم مثل مجاليه من الذين ذكرت بعض أسمائهم أعلاه، الذين ساهموا بمشاريعهم الفكرية في جهود التأسيس لنقد فكري وسوسيولوجي في واقع مغربي وعربي يدرك أنه ما يزال يعتبر السوسيولوجيا علماً مزعجاً على أكثر من صعيد، فقد كان يجابه ذلك بدعوته إلى أن ينخرط عمل عالم الاجتماع، بوعي تاريخي ومعرفي، بالمسؤولية والمكانة والدور، في حركة نضال اجتماعي وسياسي متكامل، وبما هو جزء لا يتجزأ من مضمون الممارسة النقدية لعلم الاجتماع<sup>(٨)</sup>.

وهو في هذا الموقف السوسيو - معرفي يتناغم مع المنظور النقدي لعالم الاجتماع الفرنسي آلان تورين في دفاعه عن السوسيولوجيا حين يقول: «إن موضوع علم الاجتماع لا يمكن الإشارة إليه بتعريف، وإنما بالعمل النقدي، وبرفض تصديق جميع التفسيرات، ابتداء من التعقيل الذي يسوّغ الفاعل به أفعاله، حتى المعنى المتجسد في المقولات الإدارية، التي تبدو أبعد ما تكون عن أن تصبح محملة بالمقاصد... فإذا ما نبذ علم الاجتماع، في الأغلب وبعنف شديد، أو نظر إليه دائماً تقريباً بالكثير من الحذر، فهذا لأنه يسعى إلى إدراك اندفاع المجتمع، وفهم الحركة التي يقودها ذاته بذاته من دون أن يلجأ، من أجل ذلك، إلى تفسير فوق اجتماعي.

فعلم الاجتماع لا يكون متمتعاً بحريته، وهو على الهامش في معزل عن العواصف، وإنما يكون كذلك حين يصهره الصراع بقوة شديدة تجعله يلتقط أنفاسه بمشقة... ولما كان هذا العلم مهدداً، من ناحية، بالأيديولوجيا والخضوع للفاعلين، ومهدداً، من ناحية أخرى، بالحرفية والهامشية، فإنه يعيش بصعوبة، ولا يعمل إلا ضمن الحدود التي يكون فيها مجتمعه متسامحاً، وتكون السلطة غير موحدة، وعلى نحو أدق، حينما تكون القوى الجديدة

(٧) يستحسن الرجوع إلى أعمال بعض الباحثين والمفكرين المشار إليهم، ومكجّد أمثلة فحسب عن بعض أعمالهم المرجعية المؤسسية: انظر: (الجابري، ١٩٨٨؛ سعيد، ١٩٨١؛ الخطيبي، ١٩٨٠؛ Laroui, 1980, and Pascon, 1976).

(٨) ذكر جسوس، في بعض محاضراته أنه ربما كان وراء مواقف الحذر والتحفّظ التي اتّخذتها قوى ونخب اجتماعية نافذة في مغرب ستينيات وسبعينيات القرن الماضي بالذات إزاء علم الاجتماع، وهو ما وقع لدى بعضها من خلط أو التباس بين Socialisme و Sociologie. فاعتبرت السوسيولوجيا أداة تحريض على أفكار ومسلكتيات الثورة والنقد الجذري والتطرق والاحتجاج...، فكان ذلك من بين أسباب إغلاق معهد العلوم الاجتماعية في الرباط في مستهل السبعينيات المذكورة.

معتمدة على التحليل النقدي لعالم الاجتماع، فتتقبله أو تشجعه في جهدها من أجل كسر الحواجز التي تقف في وجه عملها الخاص، سواء أكان ذلك من جهة الطبقة القائدة، أو جهاز الدولة، أو من جهة القوى الشعبية» (تورين، ١٩٧٩: ٩ - ١٥ و ١٨ - ٢٢).

إن هذه الرؤية النقدية لعلم الاجتماع هي التي كانت وراء ذلك النقد الصارم الذي وجهه محمد جسوس إلى الوظائف الفكرية والتربوية والاجتماعية والأيدولوجية للجامعة ولد «العقل الجامعي» أو «الثقافة الجامعية»، ولأزمة علم الاجتماع والبحث العلمي عامة، ورفض اقتصارهما على ممارسات بيداغوجية ومهنية ضيقة، وأحياناً سطحية، وعلى الأوضاع التي يظللان فيها مجرد خدمات تعليمية، أو «معرفة تحت الطلب»، منشغلة بهم الاستجابة لمتطلبات السوق - رغم الأهمية الوازنة لذلك في الشروط الراهنة لمجتمعنا - أكثر مما هي منشغلة بمهام ورهانات التأسيس لمعرفة علمية نقدية مؤصلة، مستقلة عن جل إكراهات ومنزقات الارتهان للمعرفة الغربية الكولونيالية أو الاستشراقية، ولا سيما في بعض نماذجها ومضامينها الأيدولوجية... ولكن شريطة أن تظل معرفة متواشجة ومتواصلة مع شروط إنتاجها ومقومات خصوصياتها الذاتية بكل أبعادها وارتباطاتها الكونية الإنسانية... ضمن هذا التوجه يمكن أن نفهم ونفسّر، كما سنشير إلى ذلك لاحقاً، طبيعة وثقل الحضور الذي تحتله «المسألة الاجتماعية» في المجهود الفكري والمسار السياسي لمحمد جسوس.

### ثالثاً: محمد جسوس والمسألة الاجتماعية: قضايا، وإشكالات، ومحاور اهتمام

لعل من أبرز ما يلاحظ في قراءة أعمال محمد جسوس وتتبع مساره الفكري والسياسي، أنه يصعب على الباحث أن يفصل في ذلك بين اهتمامه بـ «المسألة السوسيولوجية» الآتفة الذكر، وانشغاله، بشكل محايث، وفي الآن ذاته، بقضايا «المسألة الاجتماعية» (Question Sociale)، وخاصة في مفهومها الموسع الذي يشمل الحقل الاجتماعي العام، ويطال مجمل مشكلاته ومكوناته المتداخلة. وهو مفهوم يقترب، ضمن بعض الحدود والمواصفات، من المعنى الذي يعطيه محمد جسوس نفسه لهذه المسألة، وذلك حين يرى - في خلاصة تحليله لأهم أبعادها ودلالاتها وغياب الوعي الناضج بها في سياقنا المغربي والعربي، سواء لدى الأجهزة الحاكمة أو لدى القوى أو النخبات التقدمية - «أن كل نسق مجتمعي... يفرض على أعضائه إمكانيات واحتمالات، ويفرض في المقابل عليهم قيوداً وحدوداً عامة وشاملة يتداخل فيها الاقتصادي مع السياسي والثقافي، والأيدولوجي مع المعرفي ليتشكل ما نسميه إجمالاً بالاجتماعي أو المجتمعي» (جسوس، ٢٠٠٣: ٤٠) <sup>(٩)</sup>.

وبعيداً عن أي نقاش - قد يكون مفيداً، ولكنه قد يتشعب بما لا يتلاءم مع طبيعة هذا العرض ومقتضى المقام - فإن ما نقصده من مدلولات المسألة المسوقة في ما سلف هو تلك الهموم والمشكلات «الاجتماعية» التي كرس لها محمد جسوس، إلى جانب اجتهاداته العلمية

(٩) وللتوسع في فهمه لهذه المسألة، انظر: (جسوس، ٢٠٠٣: ٣٥ - ٦٩، ومجلة نوافذ، ١٩٩٩: ٥ - ١٠٥).

الأكاديمية المبدعة، وبالموازاة المتناغمة معها، جهوده الفكرية أيضاً في مجالات النضال السياسي والعمل الاجتماعي.

وإذا كانت «المسألة الاجتماعية»، كما أسلفنا، تقع في صميم جدلية ديناميكية ناظمة بينها وبين «المسألة العلمية» في كل العلوم الاجتماعية والإنسانية: تأسيساً وتطوراً وتراكماً، كمياً ونوعياً، وامتدادات راهنة، فإن أساليب وتوجهات ومستويات الوعي والاهتمام بهذه المسألة الاجتماعية، ظلت تتباين، في العديد من نماذجها، باختلاف الباحثين المترتب أساساً عن اختلاف السياقات والمواضعات والشروط السوسيو-ثقافية التي تحددها معطيات الزمان والمكان... (غيث، ١٩٨٥).

ولكل هذه الاعتبارات مجتمعة، فإن اقتراح ما أسميه «خطاطة أولية» لنمذجة أو تصنيف أعمال محمد جسوس، وفق تعدد اهتماماته بالكثير من جوانب هذه المسألة الاجتماعية، قد يشكّل مقترحاً إجرائياً لا يخلو من فائدة عملية ينتظر منها أن تقوم بالدور المنهجي المطلوب في عمليات تنظيم وترتيب وتجميع هذه الأعمال في مجالات اهتمام مقترحة من جهة، كما يرجى منها أن تساهم في توجيه جهود قراءتها ونقدها والمقارنة بين مضامينها وأهدافها ومرجعياتها ومقاربتها ضمن بحوث علمية مدققة من جهة أخرى، ويبدو لي أن مجالات الاهتمام هذه يمكن إجمالها في ما يلي:

١ - **المجال الاجتماعي العام:** فيه يمكن إدراج قضايا ومشكلات الطفولة والشباب والمرأة والأسرة والبطالة والشغل والسكن والفقر والهجرة والتحضر... وأساليب العيش ومرافق ومؤسسات وقوانين تنظيم وتدبير وحكامة مختلف ميادين ودواليب الشأن المجتمعي العام، وإشكالات المجتمع المدني...<sup>(١٠)</sup>.

٢ - **الحقل السياسي:** يتضمن في مدلوله العام، البحث في آليات ومحددات اشتغال النسق السياسي بكل مكوّناته: من دولة وأجهزتها ومرتكزاتها وامتداداتها، ومن أحزاب ونقابات، وبكل ما يترابط بها من أدوار ووظائف سوسيوسياسية وثقافية، ومن مشكلات التنظيم والتأطير والمشاركة السياسية والانتخابية وما يرتبط بذلك أيضاً من تمثيلية وسلوك سياسي وانتخابي، ومن «ثقافة سياسية»، وبمجمّل ما يفترض أن يكون داعماً للمسار التنموي والإصلاح السياسي والبناء الديمقراطي الشامل...<sup>(١١)</sup>.

٣ - **المسألة التربوية:** ونظراً إلى أهمية هذه المسألة عنده في مختلف مشاريع وميادين تكوين الإنسان وبناء المواطنة، وتحقيق التنمية البشرية والاجتماعية المتكاملة، وتمكين المجتمع من المواكبة العلمية والثقافية والحضارية، ونيل استحقاقات الانتماء إلى زمن العولمة

(١٠) لا يشكّل ما ورد من هذه القضايا في كتبه المنشورة الأنفة الذكر سوى نزر يسير من دروسه النظامية ومحاضراته الفكرية مما لم ينشر بعد.

(١١) له أيضاً درس جامعي قدّمه في مستهل ثمانينيات القرن الماضي بالسّلك الثالث في علم الاجتماع/تخصص: النظريات السوسولوجية. وهو كذلك، رغم قيمته المنهجية في «مقاربة إشكالية الدولة وآليات اشتغال الحق السياسي في مجتمعات العالم» لم يتمّ نشره بعد.

و«مجتمع المعرفة الجديد»، فقد اهتم محمد جسوس بالكثير من أبعاد وجوانب هذه المسألة على امتداد مساره الفكري. وهكذا اعتنى، على سبيل المثال، بما يتحكم في مجتمعنا من عوامل وآليات إنتاج وإعادة إنتاج «أزمة المدرسة والجامعة» والحقل التربوي — التكويني عامة: سياسات موجهة، ومناهج ومضامين ولغة وبنىات وعلاقات وقيماً وممارسات وآليات اشتغال... منتقداً ما للجوانب السلبية لذلك من خلفيات وضمنيات أيديولوجية، ومن آثار ومستتبعات وعواقب على مآل ومستقبل النظام التربوي برمته، بل وعلى النظام الاجتماعي بشكل أعم وأشمل...<sup>(١٢)</sup>.

٤ - **المسألة الثقافية:** وذلك بالمفهوم الشمولي للثقافة، أي بما هي نسق متكامل من المعارف ومنظومات القيم والرموز والمعايير والعادات والأعراف والتقاليد والقواعد ورؤى العالم في مجتمع ما. وبما هي أيضاً كل مركب من «الثقافة العالمية» وثقافة «الحس المشترك» و«الثقافات الفرعية» المختلفة... وهنا يمكن أن نستحضر اعتناؤه بالتناول النقدي لأزمات الثقافة والمتخفين في مجتمعاتنا العربية، وبأبعاد ودلالات وخلفيات الخطاب حول التراث و«الثقافة الوطنية والقومية»، وبالبحث في «الثقافة الشعبية»، وكذلك في قضايا ثقافية — تربوية متداخلة، مثل معضلة التعريب، ولغات التعليم، و«المسألة الأمازيغية»، وإشكالية التعدد اللغوي والثقافي...<sup>(١٣)</sup>.

٥ - **المسألة القروية:** يتضح من المسار العلمي لمحمد جسوس أنه قد اعتنى منذ تكوينه الأكاديمي بهذه المسألة: بحثه حول «حضارة القبيلة في المغرب: نموذج سوس»، إلا أنه عمل على تعميق فهمه العلمي لأبعاد ومكونات هذه المسألة لاحقاً. ولا شك في أن درسه الجامعي في «سوسيولوجيا العالم القروي»، الذي ظل يقدمه بمستوى السلك الثالث في كلية الآداب في الرباط، وخاصة منذ العقد الأخير من القرن الفائت، يُعدّ، في تقديري، مساهمة علمية وازنة. فقد انشغل فيه بنقد وتحليل ومقارنة العديد من المفاهيم والنظريات والرؤى، الاستشرافية منها والكولونيالية والمحلية، التي قاربت بعض جوانب هذه المسألة. هذا إضافة إلى دراسته المعمّقة للعالم القروي المغربي تحديداً، بتعدد وتنوع أوساطه ومكوّناته ومشكلاته... وبما يعرفه من تغيّر اجتماعي، ومن تحول متواتر في البنىات الأساسية مثل القبيلة والأسرة، وفي أنماط النخب أو الأعيان أو الزعامات المحلية، وفي مختلف أشكال التراتبات والتبادلات السوسيو — اقتصادية، وفي العلاقة بالعالم الحضري، وبأنساق الثقافة، وتغيّرات القيم السائدة في المجتمع العام...<sup>(١٤)</sup>.

(١٢) لقد أشرف في هذا المجال على عدّة أطروحات جامعية، منها: (محسن، ١٩٩٠، و Belarbi، 1976).

(١٣) أشرف في هذا الحقل أيضاً على بعض الأطروحات، نذكر منها مثلاً تلك التي تحوّلت إلى كتب متداولة يمكن الاطلاع عليها: (محسن، ١٩٩٣: ٢٠٠٧، وأشقرا، ١٩٩٠).

(١٤) يلاحظ أنّ محمد جسوس قد حاول، في درسه الأكاديمي هذا، تطوير ومراجعة وتحيين وتعميق ما كان قد تناوله بالبحث في رسالته الأنفة الذكر: «حضارة القبيلة في المغرب...». وأعتقد أن هذا الدرس لم ينشر بدوره في كلية مكوناته ومضامينه. وما يرتبط به ممّا نشر هو مساهمته الموسومة بـ «القيادات والتراتبات الاجتماعية التقليدية». انظر: (جسوس، ٢٠٠٣: ١٦١ - ١٩١).



٦ - **قضايا التنمية والتخلف:** بما لهما من مفهومين من علاقة معينة بمفاهيم العقلانية والحداثة والتحديث والتغير الاجتماعي، وبالتيبعية والتخارج والاستعمار، أو الاستقلال والتحرر... الخ. ولعل من أهم ما قدمه محمد جسوس في مجال مقارنته لهذه القضايا التي شكّلت منذ سبعينيات القرن الماضي أحد المحاور الأساسية في دروسه الجامعية، هو تلك الرؤية النقدية التي عمل بها على تفكيك وتحليل وتأويل أهم النظريات والطروحات المفسرة لإشكاليات التنمية والتخلف والتغير الاجتماعي، كنظرية التحديث والتقارب، واتجاه التحليل الثقافي، ونظرية التبعية، ونظرية الحلقة المفرغة للفقر، والنظرية الكارثية... الخ، مركزاً في ذلك على ما يلي<sup>(١٥)</sup>:

— إبراز **الأطر المرجعية** الإبيستيمولوجية والسوسيو — تاريخية التي تنطق منها هذه التوجهات النظرية المذكورة في تحديد مفاهيم التنمية والتخلف...

— **أنماط التفسيرات** التي تقدمها لظاهرة التخلف، لمحدداتها وعواملها، وأيضاً لآفاق وشروط تحقيق التنمية في مجتمعات العالم الثالث بالذات...

— **تصوّرها لمآل هذا العالم الثالث، بل والمستقبل «النظام الكوني» بشكل أعم وأشمل:** بنيات ومؤسسات وعلاقات حضارية وتوجهات وتحولات ومسارات...

غير أن محورية هذه القضايا لدى محمد جسوس جعلته لا يقف عند حدود التحليل النقدي لأبعاده النظرية والمنهجية، بل دفعته أيضاً إلى الاهتمام بما ينجم عنها من مشكلات ومستتبعات... فما يعيشه مجتمعنا حتى الآن من تفكك أو تضارب بين المجالات والمؤسسات ومنظومات القيم والسلوكيات، وانفصام الخطاب عن الواقع...، ومن هيمنة متفاقمة، في جلّ مؤسساتنا التربوية والسياسية والإنتاجية، لظواهر وممارسات السلطة والفساد والزبونية والرشوة والوصولية والولاءات والقيم اللاعقلانية... التي تتنافى مع ثقافة ومستلزمات الحداثة والمواطنة والديمقراطية ومقومات المجتمع العصري الحديث... كل ذلك ليس سوى منتوجات سلبية، في مجملها، لآثار وأوضاع التبعية والتخلف والفوات التاريخي، التي ما تزال تشكّل، في مجتمعنا المغربي والعربي، وفي مجتمعات العالم الثالث، معيقات حقيقية للكثير من مشاريع الإصلاح والتنمية والتحديث والتحول الديمقراطي السليم...<sup>(١٦)</sup>.

وغني عن التذكير، وخاصة بالنسبة إلى الباحث المختص، أن القضايا والمسائل التي

(١٥) نسجّل هنا أن نصّه المنشور حول: «التخلف... والتغير الاجتماعي»، الذي هو، في الأصل، حوار مع د. محمد سيلا، لا يشكّل سوى صيغة مجتزأة ومختصرة ومركزة جداً لتفاصيل محاضرات «الوحدة الدراسية السنوية» المشار إليها والتي لم يتمّ نشرها كذلك، في هذا الشأن، انظر: (جسوس، ٢٠٠٣: ٩-٣٣).

(١٦) من أجل توسيع دائرة أو أفق البحث في أعمال محمد جسوس، يبدو مفيداً قراءتها في ضوء الاستثناس بأعمال أخرى حول المجتمع المغربي بالذات. كأمثلة ونماذج فقط، انظر: (الخطيبي، ١٩٨٠: البحث العلمي، ٢٠٠٤؛ حمودي، ٢٠٠٠؛ مجموعة مؤلفين، ١٩٩٨: البحث في تاريخ المغرب: حصيلة وتقويم، ١٩٨٩؛ الناجي، ٢٠٠٩؛ Berque, 1978; Leveau, 1976; Gellner, 1965; Bouderbala, Chraïbi and Pascon, 1977: 123-125; Actes de Durham: Recherches Récentes sur le Maroc moderne, 13-15 juillet 1977, 1979; Laroui, 1973, and Khatibi, 2002).

عرضنا أهمها بالكثير من الاجتزاء والتركيز في ما سبق، تظل دوماً متداخلة متكاملة، تتنظمها جدلية التبادل والتفاعل، وما الفصل بينها سوى مجرد إجراء منهجي يتغيّر الإبانة والتوضيح في الأساس. والملاحظة نفسها تصدق على ما تقدم من حديث عن «المسألة السوسيولوجية» و«المسألة الاجتماعية»، مما نتوقع أن يُستنتج منه، ومما سيأتي، بعض معالم ومؤشرات المكانة العلمية والإنسانية للجهود الفكرية والمسار الحياتي والاجتماعي والنضالي العام لمحمد جسوس<sup>(١٧)</sup>.

## رابعاً: نحو منظور جدلي لعلاقة النظرية بالممارسة: عن القيمة الفكرية والاجتماعية المضافة إلى اجتهادات محمد جسوس

مما يعرفه المتتبع لتطورات المسيرة الفكرية والتربوية والسياسية لمحمد جسوس أنه قد تعرّض خلال جلّ أطوارها ومحطاتها إلى الكثير من أشكال وأفانين النقد الصارم، الذي تطرّف إلى حدّ التجريح والتبخيس والتفنيد والدحض لطروحاته وأفكاره ومواقفه... سواء من طرف بعض الأفراد أو الجماعات أو الجهات الرسمية أيضاً، التي اتهمه بعضها بـ «التطرّف...»، و«التجرؤ على إهانة الوطن والاستهتار بالتضحيات الجسيمة...»، و«الديماغوجية ومحاولة استجلاب الحركات الطلابية...»، و«المغالطات والتناقضات...» وتعمية الحقائق أمام الرأي العام وتقديمها في صورة مشوّهة...»، و«الشعور باليأس والإحباط...»، و«المسّ بالشرعية المغربية بكل مقدساتها وثوابتها، باعتباره أن الحركة الوطنية التحريرية وقع إجهاضها وتحويلها عن مسارها في اتجاه منحرف...»<sup>(١٨)</sup>.

إلا أنه - وبعبداً عن الدخول في مناقشة أو نقد هذا النقد، والكشف عن خلفياته وأغراضه ومبَيّناته الفكرية والأيديولوجية، ومدى قدرته على الصمود أمام الحقائق والوقائع الملموسة... الأمر الذي قد لا ينسجم مع الطبيعة المنهجية لهذا العرض، بل تحتاج معالجته إلى مقام آخر أكثر ملاءمة - فإن محمد جسوس يبقى، في تقديرنا، علامة فكرية وتربوية فارقة في تاريخ الفكر السوسيولوجي والعمل السياسي والاجتماعي في المغرب المعاصر. وهو معطى لا يجعل من البحث في مجمل أعماله وأطوار سيرته النضالية مجرد مبادرة محمودة مطلوبة على درب التكريم والتثمين والاعتراف بالجميل...، وإنما مدخلاً رئيسياً إلى رصد بعض تحولات الفكر والثقافة والسياسة والاجتماع في بلدنا، وفي أبعادها الوطنية والقومية والإنسانية...<sup>(١٩)</sup>.

(١٧) يتجلى تداخل المسألتين المذكورتين حتى في أدقّ القضايا التي بحثها. انظر مثلاً: (Guessous, 1989: 187-208).

(١٨) بشأن هذا النقد، انظر بيان حقيقة من وزارة التربية الوطنية حول موضوع: «إنهم يريدون خلق أجيال من الضياع» المنشور في: (جسوس، ٢٠٠٤: ١٧٥ - ١٨٨).

(١٩) نقصد بذلك ما تبلور في أوائل القرن الماضي، وما تطوّر في نصفه الثاني من تيارات فكرية عرفها الوطن العربي والعالم الثالث، مثل: التيارات اليسارية الماركسية - الاشتراكية، والقومية، والليبرالية، والإصلاحية، والإسلامية... وما كان بينهما من صراع أو تبادل وحوار.

حول بعض جوانب هذه القضية، انظر: («حركة المجتمع العربي: ملف»، ١٩٨٩: ٣ - ١٠٩).

ولهذه الاعتبارات كلها، فإن عناصر ومكوّنات «الصنافة المنهجية»، التي عرضناها في ما سلف، يمكن أن تشكّل، في تصوّرنا (Paradigme) «إطاراً إرشادياً موجّهاً» يستأنس به في مقارنة القيمة الفكرية والاجتماعية لمحمد جسوس، ولا سيما انطلاقاً من جدلية العلاقة لديه بين «المسألة السوسيولوجية» و«المسألة الاجتماعية» بمدلولهما الموسّع الأنف. ومن هنا تتجلّى، في مضمار البحث في مضامين وأبعاد هذه الجدلية، أهمية أطراح وفحص الأسئلة/الفرضيات النظرية والمنهجية التالية:

١ - بأي معنى، وضمن أية حدود يمكن مقارنة المنتج الفكري لمحمد جسوس في تواشجه الدينامي مع تحولات المجتمع المغربي، وتحسّسه لنبض متغيّراته ومستجداته على صعد ومستويات معرفية واجتماعية متعددة؟

٢ - ما هي طبيعة وخصوصية ومحددات حضور كلّ من «المسألة السوسيولوجية» و«المسألة الاجتماعية» في هذا المنتج؟ أي كيف اهتم، في الآن ذاته، بجهود التأسيس النظري والمنهجي، إلى جانب مجاليه، لـ «سوسيولوجيا نقدية مطابقة» (Adéquate) لمقوّمات وشروط ومعطيات المجتمع المغربي والعربي على السواء؟ وبالتالي كيف كان - بحسب تعبير آلان تورين - «ينتزع الوقائع السوسيولوجية من الوقائع الاجتماعية؟»، فيتخذ بذلك من مشكلات وقضايا المسألة الاجتماعية «محك اختبار عملي»، لمدى الصلاحية أو النجاعة المعرفية والتاريخية لمقتضيات «النظرية»، كما هو متداول في توجيهات «سوسيولوجيا المعرفة» و«إبيستمولوجيا المعرفة» بشكل عام، وفي ميدان العلوم الإنسانية والاجتماعية بشكل خاص<sup>(٢٠)</sup>.

٣ - كيف استطاع أيضاً، وضمن أية حدود، أن يوازن في مساهماته العلمية ومساره الاجتماعي بين وظيفة ودور «العالم/الباحث» الموضوعي المتسم بمعايير الحياد والتجرّد واتخاذ المسافة اللازمة بين الذات المنتجة للمعرفة والموضوع أو الواقع المبحوث، من جهة، وبين مهام «الفاعل السياسي» الملتزم بقضايا ومعتقدات ورهانات اجتماعية وأيديولوجية معينة، والمنخرط في غمار «لعبة سياسية» معقّدة توجهها براغماتية وظرفية «فن تدبير الممكن» من التموّقات والمصالح والآراء والمواقف والأحكام المتغيّرة... أكثر مما يحكمها، كما المعرفة العلمية، نشدان قيم ومبادئ الحق/الحقيقة، ولو في حدود ثباتها النسبي؟ وبالتالي، كيف استطاع أن يستفيد في شخصه، فكرياً وممارسة، من موقع وعمل كلّ من «العالم والسياسي»، على حدّ تعبير ماكس فيبر، وأن يوفق بين «المعرفة والمصلحة» وفق قاموس يورغن هابرماس؟ (Weber, 1959, and Habermas, 1976).

٤ - ضمن أي منظور يمكن للباحث أن يقارب ويقوم أو يقيم موضوعياً بعض أشكال

(٢٠) يمكن أن نستحضر هنا تأثير الفكر الاشتراكي بشكل أو بآخر، في الساحة الثقافية في مجتمعاتنا العربية منذ مستهل النصف الثاني من القرن الماضي بشكل عام. وربما لذلك كان محمد جسوس يشير أحياناً - ولكن بوعي نقدي صارم وحذر - إلى ماركس وغرامشي والتوسير... إلخ، ممّن انبثقت نظرياتهم من رُحم النضال والثورة ومعاناة تجارب السجن وخبرات الممارسة العملية. انظر: (قضايا المجتمع المدني العربي في ضوء أطروحات جرامشي ندوة)، (١٩٩٢).

النقد التي وجّهت من طرف بعض الأفراد أو الجهات، إلى المساهمات السوسيولوجية لمحمد جسوس، والتي اعتبرتها مجرد «خطابات مثقفية أو نضالية» (Discours Intellectualistes et Militantistes)، موسومة بالكثير من الانزياحات عن الروح العلمية، ومن الانحياز، العلني أو المضمّر، لقيم فكرية وسياسية معينة...٩

ولشهادة منصفة وللتاريخ، فإن كاتب هذه السطور، وهو يستمع على كرسي التلمذة لهذا الرجل في دروسه الجامعية، لم يكن يشعر أبداً أنه يتكلم «سياسياً» أو يرمز أو يلمز أو يغمز بأي شكل ولأي غرض أو موقف أو حكم أو مبيت أيديولوجي أو سياسي، ظاهراً كان ذلك أو مستتراً، بل إن من بين أغرب ما كان يدهشنا، نحن طلبته، في هذه الوضعية التربوية، هو تلك الموضوعية أو الصرامة العلمية التي كان يحرص عليها، والتي كان ينطلق منها في إقامة درسه الأكاديمي على «عدة نظرية ومنهجية وبيداغوجية» متكاملة مما سبق أن أشرنا إليه من أساليب العرض، والأشكلة، وبناء المفاهيم، وطرائق التنظيم والتحليل والتركيب والشرح والتوضيح والتوثيق واستنطاق العديد من النصوص أو الأصول السوسيولوجية والأنثروبولوجية والفلسفية المؤسسة... مستعينا أحياناً حتى ببعض حكم وأمثال وطرائف ومفاهيم التراث أو الثقافة الشعبية... الخ، مما أعتقد أنه لو تم تجميعه وتنظيمه وتوثيقه وتدوينه - ولا سيما من طرف صاحبه، وبالصورة التي يريده أن يقدم بها إلى القراء - لكان نموذجاً يحتدى في الدرس السوسيولوجي ذي المستوى الأكاديمي الرفيع: قيمة فكرية، واتساقاً منهجياً، وعمقاً مضمونياً، ودقة علمية عالية، متسمة بالعديد من مقومات الجودة والتميّز والفرادة والإبداع...<sup>(٢١)</sup>.

٥ - تأسيساً على كل ما سبق، فهل يمكن تصنيف المساهمات السوسيولوجية لمحمد جسوس ضمن «مدرسة أو اتجاه أو تيار فكري ما...»؟ لعل في ما كتب هو ذاته بعضاً من الإجابة عن هذا السؤال المهم، فلنستمع إلى قوله: «أنا لا أتوفر على منظومة فكرية عامة... غياب هذه المنظومة أنا أعتبره وفاء لقواعد الفكر وقواعد البحث العلمي وقواعد العصر... فنحن في عصر يتسم بتعدد آليات الانتقال وقلة النماذج المهيمنة... أعتقد أن المثقف الملتزم من واجبه أن يميّز بالفعل بين ما يمكن أن يطرحه من اجتهادات والحقائق العلمية الثابتة. ما نطرحه على الطلبة هو، بالفعل، إشكاليات وطروحات واجتهادات... تبقى، كيفما كان الأمر، مفتوحة للحوار، قابلة للتعديل، قابلة للتفنيد والنقد الذاتي، قابلة حتى للتجاوز، قابلة للتطور والتكيف... وأسس التطور والتكيف، لا يمكن إلا أن تركز على الأسس الثلاثة التالية:

— الارتكاز على إسهامات نظرية جديدة.

— الارتكاز على معطيات ميدانية جديدة.

— الارتكاز على تجارب نضالية جديدة.

(٢١) نسجّل هنا ملاحظة مهمة لم يحفل بها الباحثون كثيراً، ألا وهي جمالية أسلوب محمد جسوس، التي ترتبط لديه بإتقانه لفن الخطابة وتقنيات الخطاب والتواصل والحوار... مهما يعطي لأعماله أبعاداً أدبية وإبداعية، ويجعل منها موضوعاً حرياً بامتياز بدراسات متخصصة متنوعة.

وعندما أذكر هذه الأسس تلاحظون أنها، منذ البداية، متعددة، ولا يمكن أن تؤدي، بالضرورة، إلى حقيقة واحدة... والتاريخ يدل على ذلك... وجود التاريخ في حد ذاته دليل على أن الأسئلة تتغير، ومع تغير الأسئلة تتغير الاجتهادات، وتتغير الإجابات، وتتغير الإشكاليات.

أنا، بالفعل، لم أنتج، ولا أريد، ولا أتمنى بأية صفة من الصفات، أن أنتج سوسيولوجيا جسوسية أو مدرسة جسوسية أو شيئاً من هذا القبيل، لا سياسياً، ولا على الصعيد الفكري...» (جسوس، ٢٠٠٣ ب: ٣ - ٤).

وبغض النظر عن معقولية هذه المبررات والتجججات أو عدمها، فإن أعراف وأخلاقيات الحوار الفكري تلزمننا بالأن نحمل الرجل ما لا يطيق أو لا يريد. ولكنها تفرض علينا أيضاً أن نقر بما نعتقد أنه، في هذه القضية الجدالية، أقرب إلى المقبول أو الصواب. وهكذا، وبالرغم من وجاهة بعض المبررات الأنفة، إلا أنها ترتبط، في تقديرنا وفي جزء منها على الأقل، بما عرف به محمد جسوس من تحفظ في الأحكام، ومن «تمامية في التفكير» (Perfectionnisme)، ومن تواضع علمي، و«عفة» فكرية وسياسية وأخلاقية عالية... غير أننا لو تعمقنا في قراءة المرجعيات النظرية الموجهة لاجتهاداته، على قلة ما جمع ونشر منها، ولو سعنا رؤيتنا كذلك إلى مفهوم «المدرسة الفكرية» واعتبرناها مشروعاً دينامياً قابلاً، باستمرار، للتطور والاعتناء والتجدد والتغير، كما للنقد والدحض والتخطي والاستبدال... أي لنسبية الصلاحية والثبات... مما ينسجم مع ما سبق أن أكدته هو نفسه من أسس التطور والتكيف...، لو قمنا بذلك لبدا لنا ممكناً فرضية انتماء محمد جسوس إلى ما نقترح توصيفه بـ «حركة النقد الجديد» بكل فصائلها وتياراتها المتعددة، التي تبلورت ونشطت، على الخصوص، في بداية النصف الثاني من القرن العشرين في بلدان العالم الثالث بالذات، من دون إغفال جذورها الفلسفية والاجتماعية والسياسية في الفكر الحديث بشكل عام، وذلك في أفق تدعيم مطالب التحرر وبناء الاستقلال وتأسيس ثقافة جديدة و«دولة وطنية» حديثة ومجتمع جديد... (٢٢).

وإذا كان الرواد من مفكرينا في المغرب والوطن العربي، ممن سبقت الإشارة إلى بعضهم في مظان هذا العرض، ومن واكبهم أو تلاهم من أجيال السوسيولوجيين المخضرمين أو الجدد أمثالنا، قد ساهموا، بشكل ما، ووفق قناعاتهم الفكرية والاجتماعية، ومرجعياتهم ومجالات اهتماماتهم، في تطوير وإغناء مسيرة هذا النقد، فإن دور محمد جسوس في رقد أسسه النظرية والمنهجية، وإثراء مضامينه، وتوسيع دوائر امتداداته واشتغاله... يتمثل في بعض المقومات والمعالم التي نجل هنا أهمها، كمجرد أمثلة ومداخل إلى القراءة والتحليل في الأساس، في ما يلي:

— ما اتسمت به طروحاته وأفكاره من حذر نقدي قوي، ومن تحفظ كبير على مجانية التعامل الإتباعي مع منظومات المفاهيم والنظريات والنماذج التحليلية والإرشادية، وأنساق

(٢٢) إضافة إلى ما سبقت الإشارة إليه من مساهمات نقدية، يمكن الرجوع، بشأن هذا النقد، إلى: (أمين،

١٩٩٣؛ الحافظ، ١٩٧٩؛ شرابي، ١٩٩٠؛ أومليل، ١٩٨٥؛ جعيط، ١٩٨٤؛ العظم، ١٩٦٩؛ Abdelmalek, 1970؛

Ziegler, 1980, and *Sociologie des Mutations*, 1970).

القيم والمعطيات والتجارب، الغربية بالذات، وإسقاطها – بلا مراجعة نقدية صارمة أو فحص تفكيكي للأسس والخلفيات وأدوات الاشتغال – على واقعنا الفكري والثقافي والاجتماعي بشكل عام<sup>(٢٣)</sup>.

– نقد النزعة الاختزالية في علم الاجتماع (Sociologisme)، وفي كافة العلوم الإنسانية والاجتماعية، ومحاربة ما تقوم عليه هذه النزعة من «جبرية» أو «دوغمائية ووثوقية» ضيقة، وقاصرة عن تقديم معرفة مقتربة ما أمكن من الواقع المبحوث، وذلك نظراً إلى حصرها لحدود هذه المعرفة في منظور أو نظرية أو مجال تخصصي معين محدود، أو رؤية منهجية جامدة...<sup>(٢٤)</sup>.

– الدعوة إلى تبني «رؤية تكاملية» لجهود وخلاصات وتراكمات هذه العلوم كلها، واعتبارها مجرد زوايا أو منافذ أو مداخل يفترض أن نطل من كل منها على الواقع المبحوث. لكن مع الاعتراف بمشروطة وخصوصية النظر إلى هذا الواقع من زاوية رؤيوية أو تخصصية محددة ومحدودة في الآن ذاته، لا تتجاوز قصورها هذا إلا بتجاوزها وتبادلها وتكاملها النظري والمنهجي مع اجتهادات العلوم الإنسانية والدقيقة، وفي سيرة ما ينتظم علاقاتها من جدلية متواصلة للوحدة والتعدد، وللاختلاف والاختلاف، والتماثل والتمايز...<sup>(٢٥)</sup>.

– التأكيد على دور «النضال السياسي» والممارسة الاجتماعية والتاريخية عموماً في إغناء الممارسة العلمية، وذلك نظراً إلى ما لهذا البعد من أهمية في تطوير وشحن ما يسميه بيير بورديو بـ «الحس العملي» (Sens Pratique) لدى المفكر أو الباحث، والارتقاء به إلى مستويات عميقة من التجذر في الواقع الملموس، والإصغاء إلى تفاعلاته وديناميكية تغير وتحول أسسه ومعطياته في الزمان والمكان... مما يفترض فيه أن يشكل دعامة مفصلية لإثراء «حس أو وعي نظري» منفتح يقظ، ومن قبيل ما هو موسوم لدى رايت ميلز بـ «الخيال/المخيلة السوسيولوجية» (L'Imagination Sociologique)، أي مجموع المقومات والقدرات التي يجب، بحسب رايت ميلز، أن يتوفر عليها عالم الاجتماع في مجالات التنظير والتحليل والتركيب وإعادة بناء الإشكالات والمفاهيم... كما في ميادين الفهم والنقد

(٢٣) يمكن ملاحظة هذا النقد في تعامله المنفتح والحذر في آن مع أهم اتجاهات وأعلام النظريات البنيوية والوظيفية والماركسية وغيرها. في ما يتعلق بهذه المسألة، انظر: (Guessous, 1960; 1968; Parsons et Bourricaud, 1955, et Merton, 1965).

(٢٤) غالباً ما كان يستحضر، إلى جانب المرجعيات النقدية الأنفة الذكر، مجموعة مهمة من الأسماء والطروحات، منها: (كوهن، ١٩٨٦: ١١٩ – ٢٢٦; Popper, 1978, and Nesbit, 1969; Feyerabend, 1979).

(٢٥) يمكن استنتاج هذه الرؤية التكاملية من مجمل أعماله الأنفة الذكر، فضلاً على أنه كان يدعو، في الكثير من محاضراته وحواراته، إلى تكامل مختلف نظريات ومناهج العلوم الإنسانية والاجتماعية تحديداً، وتجاوز الفصل التقليدي والتعسفي بين هذه العلوم، سواء على مستوى نظام التقسيم أو التشعب الأكاديمي، أو على مستوى البحث العلمي والممارسة التطبيقية، مثلاً، في الوقت ذاته، مختلف المساهمات والدراسات الآتية من حقول أخرى خارج التخصصات السوسيولوجية، من قبيل: العلوم السياسية والاقتصاد والتاريخ والأنثروبولوجيا والفلسفة والسيكولوجيا الاجتماعية واللسانيات والنقد الأدبي والثقافي... إلخ، مما يساهم في تحقيق تراكم مفيد، من حيث المبدأ، في ميادين معرفية اجتماعية مختلفة، كما هي حالة المغرب تحديداً.

والتفسير وقراءة وتأويل المعارف والوقائع والمعطيات والأحكام... بعيداً عن أي «اختبارية» غفل ساذجة<sup>(٢٦)</sup>.

— الاستناد إلى كل ما سبق في «تنسيب المعرفة الإنسانية»، وخاصة في مضمار العلوم الاجتماعية، ذلك أن الذات العارفة في هذه العلوم بالتحديد، هي، في الآن نفسه، ذات باحثة وموضع بحث، أي أنها جزء لا يتجزأ من الواقع المدروس، وبما تحمله من رواشب وخلفيات وقناعات اجتماعية وثقافية وأيديولوجية، وبما لها أيضاً من ارتباطات ونزوعات مصلحة متباينة، ومن حدود في إمكانات وشروط إنتاج معرفة موضوعية مكتملة... هذا بالإضافة إلى أن الظواهر الاجتماعية، التي هي موضوع مقاربات هذه العلوم، هي ظواهر — على عكس ظواهر الطبيعة المتسمة ببعض الاستقرار أو الثبات النسبي — متميزة بكونها متغيرة ومتبدلة ومتطورة وخاضعة لمقتضيات وتحولات الزمان والمكان. وبالتالي، فإننا لا يمكن أن ننتج حولها سوى «معرفة علمية» نسبية، تبقى، على الدوام، عرضة للنقد والنقض و«القلبيلية للتنفيذ»، بحسب غاستون باشلار، وبالتالي للتطوير والتجاوز والاستدماج في سيرورة إنتاج وإعادة إنتاج «أنساق معرفية» جديدة مواكبة لمطالب ومستجدات التحول العلمي والتاريخي في آن... (كوهن، ١٩٨٦؛ غورفيتش، ١٩٨١؛ ٩ — ٧٠؛ Bachelard, 1974, et Duvignaud, 1979).

وبناءً على مجمل الفرضيات والتساؤلات والملاحظات التي سقناها سابقاً، فإن من الممكن أن نتحدث، بعد ذلك، عن انتماء محمد جسوس إلى ما يمكن توصيفه بـ «مدرسة سوسيولوجية في المغرب» كان هو من بين أبرز رؤاها ومؤسسيها، فكرياً وممارسة علمية واجتماعية، وذلك ضمن الشروط والحدود والمواضع الخصوصية التي يعترف فيها هو نفسه بـ «إمكانية الحديث عن المعالم الكبرى لبداية بروز مدرسة مغربية سوسيولوجية ساهمت في ترسيخها بعض الشروط البنيوية والتاريخية التي حركت شيئاً ما خيال الباحثين. من أهم هذه الشروط البنيوية الابتعاد التدريجي لجيل الباحثين اليوم عن النازلة الاستعمارية. هذا العنصر الذي يتقوى يوماً بعد يوم بوصول أبناء الاستقلال إلى مراكز التقرير والسلطة والنفوذ والمسؤولية...

العنصر الإيجابي الثاني الذي يعمل لصالح بروز هذه المدرسة هو أن السوسيولوجيا تعيش حالياً مرحلة زعزعة للأجهزة النظرية الكبرى التي كانت سائدة على الصعيد العالمي. لم يعد هناك أساتذة إلا بالمعنى النسبي للكلمة. الكل يبحث عن أدوات جديدة يمكن أن تكون أكثر ملائمة لتحليل الأوضاع الجديدة أو المستجدة حالياً على الصعيد العالمي» (جسوس، ٢٠٠٣: ٢٢٤).

ومعلوم أن المدرسة السوسيولوجية التي نتحدث عنها نريدها أن تكون مفهومة في مدلولها الشمولي الموسع، أي باعتبارها، في تصوّرنا، بمثابة «مشروع فكري» لا يقف مضمونه ومداها عند حدود الجهد الذاتي أو المساهمة الفردية، مهما كانت جدّة وجودة وقيمة ذلك،

وإنما يظل مفتوحاً على تضافر وتكامل الجهود وتراكم المعارف والتجارب والقيم العلمية والإنسانية الموجهة...، وأيضاً على مختلف ديناميات التحول والتجدد والاغتناء المستديم... وفي إطار تفاعل جدلي متواصل مع معطيات ومطالب التغير الاجتماعي والفكري والثقافي والحضاري الشامل، وعلى كافة الصعد والمستويات (جسوس، ٢٠٠٣: ٢١٣ - ٢٢٩) (٢٧).

بهذا المعنى الذي قدمناه لمفهوم «المدرسة الفكرية»، ووفق توجّهات وعناصر هذه «الخطاطة المنهجية»، التي نقترحها في هذا العرض، كـ «دليل عمل إرشادي» لقراءة أعمال ومسار محمد جسوس، نرى مفيداً أن يتجه البحث في هذا المجال نحو إبراز القيمة الفكرية المضافة للمساهمة النقدية لهذا الباحث المتميّز في هذه المدرسة بالذات، ومقاربة أشكال التوجيه والتأثير التي بصم بها ميدان البحث الاجتماعي، في جلّ تخصّصاته وأجياله، ولا سيما بالنسبة إلى تلاميذه من «السوسيولوجيين المحدثين»، الذين يفترض انتماءهم إلى المدرسة المذكورة الأنفة، والذين أصبح لبعضهم الآن حضور ما وامتدادات معينة، ليس فقط في الساحة الفكرية في المغرب، وإنما أيضاً على مستوى الوطن العربي والعالم الغربي بشكل عام (٢٨).

## خاتمة: تعقيبات وآفاق للنظر والاقتراح: نحو مأسسة مستقبلية للبحث السوسيولوجي

لم نكن نروم، مما عرضناه آنفاً، سوى تقديم بعض المداخل أو المقترحات النظرية والعملية التي نعتقد أن الاستئناس بها يمكن أن ييسّر على الباحث في مسار محمد جسوس وتراثه الفكري مهام القراءة والفهم والتحليل والتفسير... إلا أننا نرى هنا مجدداً ضرورة تأكيد الملاحظات المحورية الآتية:

١ - أهمية النظر إلى عناصر ومكونات «الخطاطة المنهجية» الأنفة في تداخلها وتكاملها ونزوعها إلى أن تشكّل «إطاراً رؤيويّاً ومنظورياً» للبحث ومقاربة «الموضوع» المعني، مع التذكير بأننا لم نقم سوى بإبراز ملامحها أو معالمها الأساسية، وذلك من دون احتفاء بالتفصيل المعمّق لها، الأمر الذي لا تسمح به طبيعة هذه البحث وحدوده.

٢ - لا ينبغي أن يفهم مما سبق أيضاً أننا نستقصي أي تعسف فكري أو منهجي على التجربة العلمية والسياسية والاجتماعية لمحمد جسوس، فنجبرها قسراً على أن تتنمّط أو تتحنّط أو تنتظم في خانات أو قضايا أو هموم أو اهتمامات أو أسئلة معينة... أو أي تعسف أيضاً على الباحثين في هذه التجربة، فنحصر رؤاهم وقراءاتهم لأبعادها ومكوّناتها في توجهات أو أفكار أو هواجس قد ترتبط - سواء بوعي أو من دونه، بقصد أو بلا غرض مبيّنت - بخلفيات وذوات منتجها أكثر مما تعبّر عن المقوّمات الموضوعية والواقعية لـ «حقيقة»

(٢٧) حيث يتكامل هذا الطرح مع مفهوم محمد جسوس نفسه للمدرسة الفكرية السوسيولوجية بالتحديد.

(٢٨) يمكن الإشارة هنا إلى نماذج من أعمال بعض هؤلاء السوسيولوجيين، وذلك على سبيل التذكير لا الحصر،

مثل: (بورقية، ١٩٩١؛ الهراس، ١٩٨٨؛ محسن، ١٩٩٣؛ أشقرا، ١٩٩٠؛ ٢٠٠٧، وبنسعيد، ٢٠٠٧).



هذه التجربة ذاتها، الأمر الذي يبقى الباب في هذا المجال مفتوحاً أمام اختلاف وتعدد وتنوع تصوّرات والاجتهادات والمرجعيات والخطاطات القارئة بكل رؤاها وأدواتها وإمكاناتها في الفهم والتفسير والتأويل.

٣ - في هذا السياق، ونظراً إلى المكانة الوازنة التي يحتلها محمد جسوس في الفكر السوسيولوجي المعاصر، مغربياً وعربياً، فإننا نقترح على كل الجهات والأطراف والقوى السياسية والفعاليات التربوية والأكاديمية المعنية أو المسؤولة، تبني فكرة تأسيس «مركز أو معهد أو مؤسسة محمد جسوس للبحوث الاجتماعية»، وذلك اعترافاً بما كان له من ريادة وسبق، ومن دور مهم في تأصيل وترسيخ قواعد وأسس وأعراف وتقاليد وأخلاقيات البحث العلمي في الجامعة. وفي تطويره، وتوسيع دوائر اهتمامه ليشمل قضايا وإشكالات كثيراً ما ظلت مهملة، مثل: أوضاع ومواقف وتطلعات التجار الصغار، والباعة المتجولين، ورؤاد المقاهي، والحركات الدينية والشبابية والنسوية والاجتماعية بشكل عام، مما يفترض أن يكون له تأثير حاسم في تكوين أجيال من الباحثين الشباب، وإنضاج معارفهم ومستويات وعيهم بأبعاد ومكونات محيطهم الاجتماعي، التربوية منها والثقافية والسياسية والسوسيو - اقتصادية المتعددة... ومما يسمح لنا بفرضية القول إن الرهان الفكري والسوسيولوجي لمحمد جسوس قد كان في عمقه «رهاناً أو مشروعاً تربوياً بامتياز»، إذ كان هدفه المحوري هو المساهمة - انطلاقاً من العمل الأكاديمي والنضال السياسي - في بناء «المواطنة» وتكوين إنسان جديد وفكر نقدي متجدد... استهدافاً لتنمية بشرية واجتماعية متكاملة. ولعل من بين ما يمكن أن تهتم به المؤسسة المقترحة أنفا ما يلي:

- الاعتناء بالتراث السوسيولوجي، سواء في منتوجاته الكولونيالية أو الاستشراقية، أو في نماذجه «المحلية أو الوطنية»، بحثاً ونقداً وتطويراً، ومحاولات استفادة علمية واجتماعية هادفة ممنهجة...

- الانفتاح على كافة بحوث وتراكمات العلوم الاجتماعية والإنسانية، واستثمار تكاملها النظري والمنهجي وفق الرؤية النقدية الأنفة، وبما يخدم متطلبات التنمية ومستجدات وتحولات المجتمع بشكل عام... وذلك في إطار «مُأسس» منظم، عقلاني وهادف.

- الاعتناء أيضاً بما كان للجهود التربوية والأكاديمية لمحمد جسوس من دور شارط في دعم وتطوير الفكر السوسيولوجي في المغرب المعاصر.

- الاهتمام كذلك بالبحث في المسار السياسي والاجتماعي لهذا المفكر، سواء كمناضل حزبي في صفوف الاتحاد الاشتراكي للقوات الشعبية، أو كمنتخب جماعي في مدينة الرباط، وإلى أي حد كان لتكوينه العلمي وخلفيته المعرفية دور ما في رفق وإغناء هذا المسار. وإلى أي مدى أيضاً كان هذا المسار يمثل «إطاراً تجريبياً» لاختيار مستوى صلاحية معرفته العلمية تلك، وبالتالي لإثرائها وتقويمها وتطويرها وتجديدها في تكاملية دينامية متواصلة بين النظرية والممارسة؟

ولا ريب في أن ما نقصده من مقترح إقامة «المؤسسة» الأنفة هو الإقرار بنوع من الاعتراف بما كان لمحمد جسوس من دور تربوي وفكري تنويري وسياسي مهم في تاريخ

المغرب المعاصر، والتثمين لما بذله من توضيحات جسام كي تترسّخ في مجتمعا، في الفكر كما في الوجدان والسلوك، قيمة ومكانة المعرفة والعلم والعقلانية والحداثة والتقدم والحرية والديمقراطية، وكل القيم الفكرية والحضارية والإنسانية النبيلة... وذلك دفاعاً عن المبادئ الأصلية للحق والخير والجمال...

ولذلك، فإن محمد جسوس يستحق أن يُوسم بأنه، بالفعل، عالم الاجتماع الذي استطاع، بقدرات فذة وبسلاسة فكرية وبيداغوجية فريدة مبدعة... أن ينزل السوسيولوجيا: مفاهيم ونظريات وأسئلة عميقة...، من سماء «برجها النظري العاجي» إلى أرض الممارسة العملية ليجعلها «مرشد عمل ودليل تحرك وفعل ومبادرة». كما استطاع أيضاً، وبفضل فطنته أو حذاقته المنهجية والسياسية، أن يرتقي بهذه الممارسة ذاتها إلى مستوى التفاعل الإيجابي المنتج مع النظرية، تسترشد بها وتشكل بوصلة موجهة لأسئلتها وتوجهاتها وآفاق اشتغالها... بل ليجعل من هذه الممارسة أحد أهم المعايير الحاسمة في نقد وتقييم النظرية، وإبراز مدى صدقيتها ونجاعته المعرفية العلمية والتاريخية. وهنا تتجلى، في تصوّري، قيمة وفراة وخصوصية المضمون الإبداعي للمسار الفكري والسياسي والاجتماعي لمحمد جسوس، وهو ما أتمنى أن تتجه نحو الاعتراف به جهود القراءة والفهم والبحث والتحليل والتفسير...، كما أرجو أن تشكّل هذه المساهمة المتواضعة، في هذا المجال، «خارطة طريق منهجية» للاسترشاد والاستئناس □

## المراجع

- أشقرا، عثمان (١٩٩٠). في سوسيولوجيا الفكر المغربي الحديث. الدار البيضاء: عيون المقالات.
- أشقرا، عثمان (٢٠٠٧). الوطنية والسلفية الجديدة بالمغرب من ١٩٣٠ إلى ١٩٥٦. الدار البيضاء: مطبعة النجاح الجديدة.
- إشكالية العلوم الاجتماعية في الوطن العربي (ندوة) (١٩٨٤). القاهرة: المركز القومي للبحوث الاجتماعية والجنائية.
- أفاية، محمد نور الدين (٢٠٠٠). السلطة والفكر: نحو ثقافة الاعتراف في المغرب. الرباط: منشورات الزمن. (شرفات: ٣)
- أمين، سمير (١٩٩٣). سيرة ذاتية فكرية. بيروت: دار الآداب.
- أومليل، علي (١٩٨٥). الإصلاحية العربية والدولة الوطنية. الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي؛ بيروت: دار التنوير.
- البحث في تاريخ المغرب: حصيلة وتقويم. (١٩٨٩). الرباط: منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية (ندوات ومناظرات: ١٤)
- بنسعيد، إدريس (٢٠٠٧). الشباب والحجاب في المغرب: دراسة سوسيولوجية. صنعاء: منشورات الجمعية الديمقراطية لنساء المغرب، بدعم من صندوق الأمم المتحدة الإنمائي للمرأة.

- بورقية، رحمة (١٩٩١). **الدولة والسلطة والمجتمع: دراسة في الثابت والمتحول في علاقة الدولة بالقبائل بالمغرب**. بيروت: دار الطليعة.
- بوسينو، جيوفاني (١٩٩٥). **نقد المعرفة في علم الاجتماع**. ترجمة محمد عرب صاصيلا. بيروت: المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع.
- تورين، ألان (١٩٧٩). **من أجل علم الاجتماع**. ترجمة تيسير شيخ الأرض. دمشق: [د. ن.].
- الجابري، محمد عابد (١٩٨٨). **تكوين العقل العربي**. ط ٢. بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية. (نقد العقل العربي؛ ١)
- جسوس، محمد (٢٠٠٣). **رهانات الفكر السوسيولوجي بالمغرب**. الرباط: منشورات وزارة الثقافة.
- جسوس، محمد (٢٠٠٣). **طروحات حول المسألة الاجتماعية**. الدار البيضاء: منشورات الأحداث المغربية. (كتاب الشهر؛ ٦)
- جسوس، محمد (٢٠٠٤). **طروحات حول الثقافة واللغة والتعليم**. الدار البيضاء: منشورات الأحداث المغربية. (كتاب الشهر؛ ٧)
- جعيط، هشام (١٩٨٤). **الشخصية العربية والمصير العربي**. بيروت: دار الطليعة.
- الحافظ، ياسين (١٩٧٩). **الهزيمة والإيديولوجيا المهزومة**. بيروت: دار الطليعة.
- حجازي، محمد عزت [وآخرون] (١٩٨٦). **نحو علم اجتماع عربي: علم الاجتماع والمشكلات العربية الراهنة**. بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية. (سلسلة كتب المستقبل العربي؛ ٧)
- «حركة المجتمع العربي: ملف» (١٩٨٩). **الوحدة (الرباط): السنة ٥، العدد ٥٧، حيران/ يونيو**.
- حمودي، عبد الله (٢٠٠٠). **الشيخ والمريد: النسق الثقافي للسلطة في المجتمعات العربية الحديثة**. ترجمة عبد المجيد جحفة. الدار البيضاء: توبقال للنشر.
- الخطيبي، عبد الكبير (١٩٨٠). **النقد المزدوج**. بيروت: دار العودة.
- سعيد، إدوارد (١٩٨١). **الاستشراق: المعرفة، السلطة، الإنشاء**. ترجمة كمال أبو ديب. بيروت: مؤسسة الأبحاث العربية.
- السوسيولوجيا المغربية المعاصرة: **حصيلة وتقييم (١٩٨٨)**. الرباط: منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية. (ندوات ومناظرات؛ ١١)
- شرابي، هشام (١٩٩٠). **النقد الحضاري للمجتمع العربي في نهاية القرن العشرين**. بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية.
- العظم، صادق جلال (١٩٦٩). **نقد الفكر الديني**. بيروت: دار الطليعة.
- غورفيتش، جورج (١٩٨١). **الأنظر الاجتماعية للمعرفة**. ترجمة خليل أحمد خليل. بيروت: المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع.
- غيث، محمد عاطف (١٩٨٥). **تاريخ التفكير واتجاهات النظرية في علم الاجتماع**. بيروت: دار النهضة العربية.

كوهن، توماس س. (١٩٨٦). *بنية الثورات العلمية*. ترجمة علي نعمة. بيروت: دار الحداثة.

**قضايا المجتمع المدني العربي في ضوء أطروحات جرامشي** (ندوة) (١٩٩٢). القاهرة: مركز البحوث العربية بالتعاون مع الجمعية العربية لعلم الاجتماع.

مجموعة مؤلفين (١٩٩٨). *وعي المجتمع بذاته: عن المجتمع المدني في المغرب العربي*. إشراف عبد الله حمودي. الدار البيضاء: توبقال للنشر. (ندوات معهد الدراسات عبر الإقليمية للشرق الأوسط وشمال أفريقيا وآسيا الوسطى - برينستون)

محسن، مصطفى (١٩٩٠). «في سوسيولوجيا الخطاب المدرسي: بحث في الدلالة الاجتماعية للخطاب الفلسفي المدرسي بالمغرب، مساهمة في سوسيولوجيا التربية والثقافة.» (أطروحة دكتوراه سلك ثالث في علم الاجتماع، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة محمد الخامس، الرباط).

محسن، مصطفى (١٩٩٣). *المعرفة والمؤسسة: مساهمة في التحليل السوسيولوجي الفلسفي المدرسي في المغرب*. بيروت: دار الطليعة.

«المسألة الاجتماعية في المغرب: ملف.» (١٩٩٩). *مجلة نوافذ* (الرباط): العدد ٣، كانون الثاني/يناير.

«مقاربات سوسيولوجية وثقافية.» (٢٠٠٤). *البحث العلمي* (الرباط): العدد ٤٨.

الناجي، محمد (٢٠٠٩). *العبد والرعية: العبودية والسلطة والدين في العالم العربي*. ترجمة مصطفى النحال. المحمدية: منشورات المكتبة الوطنية.

الهراس، المختار (١٩٨٨). *القبيلة والسلطة: تطور البنيات الاجتماعية في شمال المغرب*. الرباط: منشورات المركز الوطني لتنسيق وتخطيط البحث العلمي والتقني.

Abdelmalek, Anouar (1970). *La Pensée arabe contemporaine*. Paris: Seuil.

*Actes de Durham: Recherches Récentes sur le Maroc moderne, 13-15 juillet 1977* (1979). Rabat: Bulletin Economique et social du Maroc.

Bachelard, Gaston (1974). *Le Nouvel esprit scientifique*. Paris: Presses Universitaire de France.

Belarbi, Aïcha (1976). «Structures et Relations pédagogiques dans un quartier populaire de Rabat.» (Thèse de 3<sup>ème</sup> cycle, Faculté des lettres, Rabat).

Berque, Jacques (1978). *Structures Sociales du Haut Atlas*. Paris: Presses Universitaire de France.

Bottomore, Tom (1975). *Crise and Contention in Sociology*. London: Sage Publication Ltd.

Bouderbala, Negib, Mohammed Chraïbi and Paul Pascon (1977). *La Question agraire au Maroc: tomes 1 et 2*. Rabat: Société d'Etudes Economiques, Sociales et Statistiques. (Bulletin Economique et Social du Maroc: Documents)

Boudon, Raymond (1971). *La Crise de la sociologie*. Paris et Genève: Droz.

Bourdieu, Pierre (1979). *La Distinction: Critique Sociale du jugement*. Paris: Minuit.

Bourdieu, Pierre (1973). *Le Métier du sociologue*. Paris: Mouton.

Bourdieu, Pierre (1980). *Le Sens pratique*. Paris: Minuit.

- Duvignaud, Jean (ed.) (1979). *La Sociologie de la connaissance*. Paris: Payot.
- Feyerabend, Paul (1979). *Contre la Méthode: Esquisse d'une théorie anarchiste de la connaissance*. Paris: Seuil.
- Gellner, Ernest (1965). *Saints of the Atlas*. London: Weidenfeld and Nicolson.
- Gouldner, Alvin (1972). *The Coming Crisis of Western Sociology*. London: Ed. Henemann, 1972.
- Guessous, Mohammed (1960). «La Civilisation tribale du Maroc: Structure et évolutions.» (Mémoire de Maîtrise, Université de Laval, Québec, Canada).
- Guessous, Mohammed (1968). «Equilibrium Theory and the Explanation of Social Change.» (Ph.D. Dissation, Princeton University, U.S.A.).
- Guessous, Mohammed (1989). «Mutations Sociales et crise des fondements de l'action régulatrice du droits.» dans: *Droit et Environnement social au Maghreb: Actes du colloque tenu à Casablanca les 10-11-12 décembre 1987* (1989). Casablanca: Publications du CNRS et Fondation du Roi Abdul-Aziz Al Saoud pour les Etudes Islamiques et les Sciences Humaines.
- Habermas, Jürgen (1976). *Connaissance et Intérêt*. Paris: Gallimard. (Collection Tel)
- Khatibi, Abdelkebir (2002). *Chemins de Traverse: Essai de sociologie*. Rabat: OKAD.
- Laroui, Abdallah (1980). *Les Origines sociales et culturelles du nationalisme Marocaine, 1830-1912*. Paris: Maspero.
- Laroui, Abdallah (1973). *L'Idéologie arabe contemporaine*. Paris: Maspero.
- Leveau, Rémy (1976). *Le Fellah marocain défenseur du Trône*. Paris: Presses de la Fondation nationale des sciences politiques.
- Merton, Robert K. (1965). *Eléments de Théorie et de méthode sociologique*. Paris: Plon.
- Mills, Charles W. (1971). *L'Imagination sociologique*. Paris: Maspers.
- Nesbit, Robert A. (1969). *Social Change and Theory*. New York: Oxford University Press.
- Parsons, Talcott et François Bourricaud (1955). *Eléments pour une Sociologie de l'action*. Paris: Plon.
- Pascon, Paul (1976). «Pour une Science de l'homme ni neutre ni soumise.» *Lamaliif Revue Marocaine*: no. 81, juin.
- Popper, Karl (1978). *La Connaissance objective*. Paris: Presses Universitaire de France.
- Sociologie des Mutations* (1970). Paris: Anthropos.
- Weber, Max (1959). *Le Savant et la politique*. Paris: Plon.
- Ziegler, Jean (1980). *Main Basse sur l'Afrique: La Recolonisation*. Paris: Seuil.